تـمّ تحميل هذا الملفّ من مكتبة الأديب الرّاحل رمضان لاوند | جميع الحقوق محفوظة © www.RamadanLawand.com

الأَديب و المُفكِّر الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَند
سيّد المنابر

أوليات الفكر الثوري عند العرب

الحلقة الرابعة

من واجبنا أن نتابع مناقشة الخلاصة التي وصلتنا من محاضرة الأستاذ مكسيم رودنسون . تلك المحاضرة التي ألقاها صاحبها في قاعة الندوة اللبنانية في بيروت . ونحن إذ نصرّ على متابعة المناقشة إنما نستهدف تسليط الأضواء على أبعاد الأزمة التي تأخذ بخناق المثقف العربي منذ عدد من العقود ..

ومن الطبيعي أن يتزايد ضغط الحاجة إلى تحقيق الرؤية الصادقة بتلاحق الكوارث والنكسات .. وقد كانت نكسة العام 1967 القشة التي فاضت بها الإناء وانهارت بسببها السدود المتهافتة التي رفعت لتمويه الحقيقة العميقة .

واختيارنا لهذه المحاضرة بالذات لا يعني أن بقية العواصم العربية ذات العلاقة المباشرة بقضية المصير العربي هي في نجوة من الملاحظات والتأملات التي نسجلها فى هذه الحلقات .. فالواقع أن زيارات أخرى قام بها عدد من المفكرين الغرباء لغير مدينة بيروت قد كانت علامات وآيات واضحة على استشراء الأزمة وحدتها .. ولعل الزيارة التي قام بها كل من جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار لمدينة القاهرة قبيل حرب حزيران من عام 1967 أن تكون أبلغ في الدلالة وأبعد في توضيح جوانب الوجه الساخر المؤلم لحقيقة الأزمة عند النخبة من المثقفين العرب .. وقد يكون في الدعوة التي تلقاها مكسيم رودنسون في بيروت أو جاك بيرك في الكويت وغير الكويت ما يشفع لها من تعاطف صاحبي الزيارتين مع الحق العربي.

أما زيارة سارتر ودي بوفوار فقد كانت ذات وجه اختلطت فيه السخرية بالمأساة حتى لم يعد فى الوجه العربي مكان فيه لسواهما .. أوَليس إصرار سارتر وسيمون دي بوفوار على زيارة اسرائيل بعد هبوطهما في القاهرة تحدياً صارخاً لتفاهة

المثقف العربي؟ أوَليس الموقف الذي اتخذه سارتر بعد حرب الخامس من حزيران من عام 1967 توكيداً لظاهرة المأساة الساخرة ؟

المعضلة إذن هي معضلة عربية عامة قد تتفاوت حدتها بين المناطق والأقطار ولكنها تبقى معضلة قومية وعلامة على واقع عربي مرير..

ولنعد إلى محاضرة مكسيم رودنسون . ولنتعرف إلى بقية الخلاصة التي وضعت فيها آراء المحاضر بزواياها الحادة الواضحة والتي ناقشنا فقرة منها في حلقة لنا سابقة .

عنوان المحاضرة كما نذكره هو : "المصير العربي وممكنات الحداثة العصرية ".. أما تعريف المحاضر للحداثة العصرية فهو في قوله كما هو منقول عن الترجمة الواردة في الصحيفة اللبنانية (لسان الحال) : (هناك مفاهيم عديدة للحداثة العصرية .. فالبعض منها يمكن تعريفه بأنه السيطرة على التقنية لبلوغ الرفاهية التي توضع بكافة وجوهها تحت تصرف المجتمع ، وينتج عبر هذا الأساس المادي تأثير في العقلية ..)

ويخيل إلينا أن الذين استمعوا إلى السيد المحاضر من المثقفين في لبنان قد أعجبوا بهذا التعريف ثم لا يدهشنا أن يصفقوا له .. وفي هذا التصفيق وذلك الإعجاب بالذات تبدو لنا أبعاد من المعضلة التي يواجهها العرب اليوم ..

هل صحيح أن الحداثة العصرية تعني السيطرة على التقنية لبلوغ الرفاهية ؟ نعم إنه صحيح في منطق المفكر الغربي .. أوَليس أن الرئيس الاميركي جونسون قد أعلن منذ سنوات قليلة عن خطة لبناء المجتمع العظيم ؟ والمجتمع العظيم كما هو مبين في أدب الغرب هو المجتمع الذي يملك ثروة مادية فائقة .. فكأن المعضلة البشرية الكبرى في نظر أصحابه هي معضلة حيازة أكبر قدر من عروض الدنيا ومادتها التي تشبع رغبات الإنسان..

والواقع أن في بناء المجتمع الأميركي من احتمالات القوة ومنجزات الثروة يغري النفوس المتعلقة إلى عالم أفضل في طبقات الشعوب النامية .. والواقع أيضاً أن سوء التغذية وفقدان السكن المريح وضياع فرص النجاح هي عوامل ضاغطة لمصلحة الموقف الغربي وخطته في فهم المجتمع العظيم ..

والأميركيون ليسوا استثناء من القاعدة .. فالسوفيات من ناحية والأوروبيون من ناحية أخرى والركب العالمي من ناحية ثالثة ، كلهم يفكرون على الطريقة الأميركية أو كثرتهم الساحقة . ذلك أن الغرب بأميركييه وروسه يشربون من بئر واحدة ويغرفون من نهر واحد .. إنهم يمثلون العقلية المؤمنة على تفاوت في قوة الإيمان بأن الاقتصاد هو الذي يصنع سعادة الشعوب ويبني الحضارات أو يحقق بؤس الشعوب ويهدم حضاراتها .. وليس هذا وحسب بل أن هذا الاقتصاد

مرتكز في فلسفته إلى قاعدة الندرة في المواد الأولية مما يبرز تسابق الشعوب إلى حيازة هذه المواد والسيطرة عليها في اندفاع عنيف يبلغ حد الهستيريا في صراع القوى العالمية. وقد لا نأتي بجديد حين نعلن أن عصر الاستعمار بواقعه الغربي وعلى طريقة الغزاة الغربيين هو حصيلة الاعتقاد بارتكاز الاقتصاد العالمي على قاعدة الندرة .

وما يسمى بعصر التحرر لم يوقف سيل التنافس على احتكار مصادر الثروات العالمية تبين الاحتكارات الاقتصادية الكبرى .. بل لعل كل الأزمات التي تأخذ برقاب الدول والشعوب أن تكون الحصيلة الحتمية لسياسة التكالب الهستيري على الأسواق العالمية ومصادر الثروة.

أمام هذه الوقائع القارعة في دنيا الناس اليوم لا يدهشنا أن تقف الشعوب النامية أمام دنيا الأقوياء بخاصة في دهشة واستغراب وعجب بالغ . وهي التي فقدت جذورها الحضارية وضيعت ثقتها بقدراتها الأصيلة الخاصة على صوغ مجتمع ذي نظام نابع من طبيعة تراثها الروحي وتقاليدها التاريخية ...

وهل يسع المثقف العربي الذي حفلت نفسه وامتلأ عقله بصور المنجزات الغربية الهائلة في حقل التكنولوجيا أو العلوم النظرية أن يمسك نفسه ويحتفظ بأبعاد كافية بينه وبين عالم هذه المنجزات، فلا يأخذه الدوار ولا تفتنه معالم القوة المادية فيه ؟ وكيف يمكنه أن يمسك نفسه ويحتفظ بالأبعاد الكافية وهو الذي لم يعد يتذوق الجمال إلا في مواطن الغرب، ولا يقدر الفكر والقيم إلا في دوائر الغرب وتقاليده وأخلاقه؟

من أجل ذلك كله نؤكد أن الذين استمعوا إلى الأستاذ مكسيم رودنسون يعرف الحداثة العصرية ويفرضها بالتالي صيغة مسلّمة على الإنسان العربي ، وهو الذي لا يدرك سواها ، قد استقبلوا تعريفه لها بالإعجاب والتأييد والمساندة . هذا بالرغم من أن رودنسون لم يأت بجديد في تعريفه، فهو التعريف الذي يعتبر في الدوائر الغربية مسلمة من المسلمات الضرورية . إن كل ما فعله الأستاذ رودنسون أنه كرر على مسامع المثقفين العرب ما يتداوله المخططون الاقتصاديون في العالم كله .. ولكن هذا صحيح أن خطة بناء المجتمع العظيم على الطريقة الغربية وهي التي تعني السيطرة على التقنية لبلوغ الرفاه ووضعها تحت تصرف المجتمع هي التي تحقق حلم الإنسان في القرن العشرين ؟

لننظر في حقيقة هذا الحلم ..

بماذا يحلم إنسان اليوم وإنسان كل يوم ؟

الواقع أنه يحلم بإشباع رغباته الضرورية من ناحية وبالحصول على الطمأنينة من ناحية أخرى .

كل جهود البشرية كانت وما تزال من أجل تحقيق هذا الحلم ..

فهل إشباع الرغبات الضرورية هو على الصورة التي تواجهنا في مجتمع مترف غني لا ضابط له، أم هو الإشباع المعتدل الذي تشارك الإرادة الأخلاقية في إقامة السدود من حوله فلا يتحول إلى رغبة هستيرية في الحيازة والملكية يدفعها خوف مريض من فقر وهمي ..

الملاحظ أن فكرة الإشباع لا تستقيم ولا تتعين أبعادها المعقولة ما لم تساندها إرادة أخلاقية . وإذا لم تتدخل الإرادة ذات المحتوى الأخلاقي في تعيين الأبعاد المعقولة للإشباع فإن مطالب الغريزة التي تقف وراء الحاجة إلى الإشباع لا تلبث أن تتصرف في خوف وقوة وعنف ثم لا تلبث بعد ذلك أن تصبح مصدراً لقلق نفسي مدمر .. هذه الظاهرة هي وحدها التي تفسر الطمع والانعزالية وقسوة القلوب وفقدان التعاون بين أفراد المجتمع الواحد.. وهي وحدها التي تحول دون تحقق الإشباع المشروط في بنية الإنسان السوي ..

وتأتي الطمأنينة بعد ذلك .. وهي مطلب أولي أساسي .. أما تعيين أبعاده وظروفه فهو مرتبط بالوضع النفسي الذي تتعين به فكرة الإشباع وبالتالي مرتبط بالمحتوى الأخلاقي للإنسان..

إن مجتمع الرفاه العظيم هو مجتمع الخلق العظيم .. وليس هو مجتمع الحيازة الكبيرة التي لا حدود لها والتي تعني تنظيم المغامرات العسكرية والانقضاض على الضعفاء في غرة لسلبهم ما يملكون من المال ومصادر الثروة .

صحيح ما يقوله الأستاذ مكسيم رودنسون من أن تأثيراً في العقلية ينتج عبر هذا الأساس المادي الذي هو السيطرة على التقنية ، ولكن هل تعني هذه السيطرة حلاً حاسماً أو تقريباً لمعضلة التخلف والفساد وقضاء على مأساة الأمة العربية ؟

المحاضر نفسه يقرر أن السيطرة والاستعمار قد نشأ عن التصنيع في أرقى درجاته . وهو وإن كان يحصر السبب الأساسي لهما في وجود المجتمعات الرأسمالية عصبية منه ضد الاقتصاد الحر ومع الاقتصاد الموجه إلا أن الثابت أن التصنيع المتقدم كظاهرة تقنية وحسب هو الذي يفسر شيوع السيطرة والاستعمار..

إن الحل غير المباشر الذي يطرحه المحاضر هنا يبدو لنا أشبه بالدوران في الحلقة المفرغة . فإن أي نظام آخر صنعه الغرب لنفسه لم يستطع أن يقدم الحل المطلوب الذي يشبع للإنسان رغباته ويحقق له طمأنينته بما في ذلك الاقتصاد الموجه . والسبب بسيط وقريب أنه يعود إلى سوء فهم عريق في عالم الغرب لدور الاقتصاد وطبيعته وعلاقة الإنسان به .

لقد قلنا في فقرة سابقة أن الغربي قد جعل من الرفاه المادي مطلباً وحيداً للإنسان وجعل الاقتصاد مرتكزاً إلى قاعدة الندرة ثم جرد هذا الاقتصاد من المبادرة الإنسانيه .

ونحن لا نخالف عن الرأي القائل بضرورة بنائنا الاقتصادي . ولكن البناء الاقتصادي نفسه لم يتحقق في تاريخ البشر إلا بالقدر الذي استيقظت فيه أخلاقه القوية ونما فيه إحساسه بوحدة المصير في حدود الأسرة الواحدة، ثم اتسعت أبعاد هذه الحدود حتى تناولت أمة كاملة، ثم تجاوزتها إلى مجموعة من الأمم تشدها عقيدة مشتركة وإرادة موحدة .

وكان اتساع الميدان الاقتصادي مشروطاً باتساع الأبعاد في الإحساس بوحدة المصير في الصعيد الإنساني . والغرب رغم تمسكه بالوحدة القومية خلال القرن التاسع عشر وبلوغ إحساسه بهذه الوحدة درجة عالية من الحدة والعنف إلا أنه بقي يعتبر مجموعة القوميات الغربية عالماً معزولاً عن بقية العوالم في أفريقيا وآسيا . وها هو اليوم يتصرف في التمكين لوجوده الاقتصادي لا في ضوء وحدات قومية منفصلة بل في ضوء نظام اقتصادي عام هو الاقتصاد الحر والاقتصاد الموجه، ولكنه بقي لا يتجاوز عالم الغربي الذي يضم أوروبا وأميركا الشمالية وبعض الأقطار الأخرى . وها هو اليوم يبدأ مرحلة جديدة يتجاوز بها أبعاد النظام الواحد ويقوم بمحاولات جدية يشد بها النظامين الرأسمالي والاشتراكي على نحو من الأنحاء وإن كانت هذه المحاولات ما تزال في البداية ..

وما دام أن الاقتصاد الغربي قادر على جعل افريقيا وآسيا بقرتين حلوبين له يستعين بهما في تحقيق أطماعه فإن تمزقه الداخلي الحاسم سيرجأ إلى فترة قادمة .

وفي تقديرنا أن سوء التوزيع على المستوى العالمي حين نضع الغرب من ناحية وافريقيا وآسيا من ناحية أخرى هو نفسه حقيقة قائمة في داخل العالم الغربي نفسه مع فارق واحد هو أن الفئات المحرومة من العالم الغربي تطرح أمامها فرائس من خارج الغرب تتضاءل بها حدة الصراع الداخلي بين طبقاته ودوله ونظمه المختلفه ...

هذه الخطة في مواجهة فلسفة البناء الاقتصادي وطرائق التمويل والتسويق وحيازة العروض مرتكزة كلها كما قلنا آنفاً على قاعدة الندرة الاقتصادية .

وتقرير الندرة الاقتصادية هو الذي يفسر الأطماع الممزقة والخوف من الفقر والتسابق الهستيري إلى حيازة الثروات . إنه التفسير الضروري للأزمات المصطنعة في قارتي أفريقيا وآسيا وللمحاولات الخفية والظاهرة لتجميد الطاقات البناءة عند شعوب هاتين القارتين .

وتأتي قضية فلسطين وما يرافقها من العدوان الصهيوني، وما وراء هذا العدوان من تأييد مطلق له في الدوائر الغربية كلها بنظاميها الاقتصاديين القائمين، برهاناً لا معقب له على طبيعة الاقتصاد العالمي الذي يستند الى مبدأ الندرة .

وإذن فنحن حين نتحدث عن " الحداثة العصرية " التي عرفها الأستاذ مكسيم رودنسون ، إنما نتحدث عن الاقتصاد العدواني الذي يؤمن بأن سعادة الأقوياء ورفاههم مشروطان باستمرار الفقر والتمزق عند الشعوب النامية.

إن ما ينفقه الغرب على الحروب الجانبية في العالم النامي هو الضريبة التي يدفعها من أجل الحفاظ على الأمر الواقع الذي هو وحده في تقديره مصدر رفاهه وشرط تجنبه لأسباب الفقر الموهوم .

هكذا يبدو لنا أن الاقتصاد الصناعي بكل ما يرافقه من قيم ويفسره من فلسفات هو اقتصاد عدواني أناني عار من المعاني الإنسانية الشاملة التي تجعل منه حقاً لكل البشر . وفي فلسفته الخاطئة ما يبررها هو اعتقاد أصحابه أنه قائم على قاعدة الندرة أي قاعدة الاعتقاد بأن ثروة الأرض غير كافية لإشباع رغبات سكان الأرض كلهم .

هذه الفلسفة اللاإنسانية هي التي وجهت وتوجه الفكر الغربي وهي التي دفعت وتدفع أمثال الدكتور مكسيم رودنسون إلى اعتبار السيطرة على التقنية وحسب شرطاً وحيداً لخلق مجتمع الرفاه . وهو موقف فيه من التبسيط الساذج والانحراف البالغ عن حقائق الثروة التي وضعتها العناية الإلهية تحت تصرف الإنسان ، ما يدفعنا إلى دراسة الاقتصاد في ضوء تجربتنا العربية الإسلامية .

فلنرجىء مناقشة هذا الموضوع إلى حلقة تالية ..